

الدولة الإسلامية ... كيف نشأت؟

فرغنا من المقدمات التمهيديّة في حال بلاد العرب قبل الإسلام، فننقدم بعد ذلك إلى الكلام في نشوء الدولة الإسلاميّة وكيف تكونت وتطورت، حتى صارت على ما عرفناه منها في أوج التمدن الإسلاميّ.

(١) الدعوة الإسلاميّة

(١-١) نشأة النبي الأوّل

تلك كانت حالة العرب في الحجاز لما ظهر النبي صاحب الشريعة الإسلاميّة ودعا الناس إلى التوحيد وأظهر دعوته سنة ٦٠٩ للميلاد وعمره أربعون سنة، ولا يتسع المقام لتفصيل سيرته، وإنما نذكر هنا ما يتعلق بالموضوع لبيان الأسباب التي رافقت ظهور الدعوة وساعدت على انتشارها.

ولد صاحب الدعوة الإسلاميّة وقد مات أبوه، وبعد ست سنوات ماتت أمه فكفله جده عبد المطلب، وكانت له السقاية والرفادة من مناصب الكعبة وكان له مقام رفيع في قريش، لكنه توفي بعد سنتين، فكفله عمه أبو طالب وكان وجيهاً محترماً، فشب محمد في بيته كأحد أولاده، وكان أبو طالب صاحب تجارة مثل سائر قريش، فكان إذا خرج في تجارة اصطحبه في أسفاره، فاشتهر منذ حدثته بالحصافة والذكاء وصدق السريرة حتى لقبوه بالأمين واشتهر في مكة بهذا اللقب، فعرفت بأمره خديجة بنت خويلد وكانت ذات ثروة وتجارة فعهدت إليه في الاتّجار بمالها فاتجر وريح فازدادت إعجاباً به، فعرضت عليه الزواج بها فتزوجها فاتسعت حالة وأصبح من أهل الرخاء واليسار والكل يحبونه ويحترمونه.

(٢-١) الدعوة

ولما بلغ الأربعين من عمره مال إلى الخلوة والاعتزال عن الناس فأوى إلى الجبال والشعاب كما يفعل النساك، وأول ما ابتدئ به «الرؤيا الصالحة»، وفي رمضان من تلك السنة (يناير ٦١١ ميلادية) كان معتزلاً بنفسه في غار حراء بجبل النور على ثلاثة أميال من مكة،^١ فنزل عليه الوحي وقرأ عليه أول سورة من سور القرآن ودعاه إلى أن يرددها وراءه، فرددتها، وأصابه الروع، وأسرع إلى زوجته خديجة وأنبأها بما وقع وقال إن الملك أمره أن يقول «اقرأ باسم ربك الذي خلق» الآية، فقراها، وإنه خرج إلى وسط الجبل فسمع صوتاً من السماء يناديه «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل» فذعر وأسرع إلى خديجة فأخبرها، وكان لها ابن عم اسمه ورقة بن نوفل قرأ الكتب ونظر فيها وخالط أهل التوراة والإنجيل وسمع أقوالهم، وكان مشهوراً في مكة بسعة العلم في الدين والنبوات، فذهبت إليه وأخبرته بما كان فقال «والذي نفس ورقة بيده، لئن صدقتني يا خديجة لقد جاء الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه نبي هذه الأمة».

فرجعت خديجة إليه وأخبرته بقول ورقة فاطمأن باله، ولكنه لم يرَ إظهار دعوته، لعلمه بما سيكون لها من ثقل الوطأة على قريش، لما فيها من تعيب آلهم وتحقير أصنامهم، وفي زهاب تلك الأصنام زهاب تجارتهم وأموالهم وكل آمالهم، ولم يكن من الجهة الأخرى يتوقع إذا أنبأهم برسالته أنهم يصدقونه فعمد إلى بث دعوته سرّاً بين أقرب الناس إليه، قضى في ذلك ثلاث سنين فاجتمع حوله نفر قليلون في جملتهم ابن عمه علي بن أبي طالب وكان لا يزال غلاماً وأبو بكر الصديق وكان من وجهاء قريش وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم، فهم بدعوة الناس جهاراً وبدا بعشيرته الأقربين فكلف ابن عمه علياً أن يصنع لهم طعاماً يدعو أهله إليه وفيهم عمومته بنو عبد المطلب وأولادهم وهم نحو أربعين رجلاً، فدعاهم إلى بيت أبيه أبي طالب، فلما فرغوا من الطعام هم محمد بالكلام وكان أهله قد سمعوا بدعوته سرّاً واستخفوا بها، فلما هم بالكلام علموا أنه سيدعوهم إلى ترك الأصنام وعبادة الله فابتدره عمه أبو لهب وكان أشدهم وطأة عليه فأسكته فسكت وتفرقوا ولم يقل شيئاً.

لكنه لم يفشل ولا ضعفت عزيمته فأعاد الوليمة ثانية وقد صمم على التصريح بما في ضميره فلما فرغوا من الطعام قال «ما أعلم أن إنساناً من العرب جاء قومه بأفضل مما

^١ ابن الأثير ٢١ ج ٢.

جئتمكم به، فقد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأبكم يؤازرنني في هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟^٢ فظلوا ساكتين وكان سكوتهم استخفافاً، فتقدم علي ابن عمه وقال «أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليهم» فأخذ النبي برقبته وقال «هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا» فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب «قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيعه» ثم انصرفوا.

(١-٣) النبي وقريش

على أن استخفافهم هذا لم يقعه عن عزمه ولا أبعدته عن قومه، فبدلاً من وقوفه عند ذلك الحد، تهيئاً وحذراً جاهر بسب الأصنام ونسب أهله وآباءهم إلى الكفر والضلال، فلما علموا بمجاهرته بسب الأصنام أجمعوا على عداوته ومقاومته وتعمدوا أذاه، لكنهم لم يروا سبيلاً إلى ذلك وهو في كفالة عمه أبي طالب ... فجاءوا عمه وفيهم أبو سفيان فقالوا له «يا أبا طالب إن ابن أخيك عاب ديننا وسفّه أعلامنا وضلل آباءنا فانهه عنا أو خلّ بيننا وبينه» فردهم أبو طالب رداً حسناً ووعدهم خيراً.

ثم رآوه لا يزال ماضياً في سب آلهتهم فعادوا إلى أبي طالب وقد اشتد بهم الغيظ وقالوا له «إن لم تنه ابن أخيك وإلا نازلناك وإياه حتى يهلك أحد الفريقين» فعظم ذلك على أبي طالب وأدرك عاقبة الأمر فلما عادوا من عنده قال لابن أخيه «يا ابن أخي إن قومك قالوا كذا وكذا» فظن أن عمه يخذله فشق عليه ذلك وقال «يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر» وبكى وهم بالانصراف فنادهه عمه وقال له «قل ما أحببت، فوالله لا أسلمك أبداً».

وكانت دعوته في أثناء ذلك تذيب على مهل، وقد أسلم جماعة من خيرة الناس كان لهم شأن عظيم في التاريخ الإسلامي منهم أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وحمزة بن عبد المطلب (عمه) وعمر بن الخطاب، وكان لإسلام هذين الأخيرين وقع حسن عند النبي، لأنهما كانا من أهل الوجاهة والقوة.

أما سائر أعمامه وأهله فلما يتسوا من وساطة عمه أبي طالب، رأوا أن يحتالوا في استرضائه بالحسنى، فبعثوا إليه وقد اجتمع كبارهم في ندوة ... فجاء فاستقبلوه بالترحاب

^٢ أبو الفداء ١١٩ ج ١.

وقالوا له «يا محمد إنا قد بعثنا إليك وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب، حتى نبرئك منه أو نعذر فيك».

فقال لهم «ما بي ما تقولون وما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني رسولاً، وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

فلما لم يروا سبيلاً إليه جعلوا يعذبون الذين أسلموا وصدقوا دعوته والمسلمون صابرون على ذلك العذاب، حتى إذا اشتد أذى قريش لهم وضاقوا ذرعاً عن تحمل ما كانوا يسومونهم من سوء العذاب والإهانة، أشار النبي على الذين ليس لهم عشيرة تحميهم أن يخرجوا من مكة إلى أرض الحبشة، فهاجروا إليها تبعاً فبلغ عدد المهاجرين ٨٣ رجلاً ما عدا النساء والأولاد، وهي الهجرة الأولى، ولا يخفى ما تقتضيه الأسفار من مكة إلى الحبشة من المشقة، لما في ذلك من ركوب البحر وخصوصاً في تلك الأزمان مع ما حملوه معهم من النساء والأطفال، فيدل ذلك على ما كان عليه هؤلاء من الاعتقاد المتين بالإسلام. ويلىق بنا الوقوف هنيئة في هذا المقام لإبداء ما ارتسم في مخيلتنا من أمر هذه الدعوة على أثر مطالعتنا الطويلة في تاريخها فنقول:

هل كان يعتقد صدق رسالته؟

زعم بعض الكتاب من غير المسلمين أن صاحب الشريعة الإسلامية إنما قام بهذه الدعوة، طمعاً في السيادة ورغبة في ملاذ الدنيا.

وأما نحن فلا نرى مسوغاً لهذا القول وتاريخ الدعوة يدل دلالة صريحة على أنه إنما قام بها عن صدق وإخلاص، فلم يدع الناس إلى الإسلام إلا وهو يعتقد اعتقاداً متيناً بصحة رسالته وأن الله أرسله لبث تلك الدعوة، ولولا هذا الاعتقاد لم يصبر على ما ناله من الاضطهاد وضروب العذاب، وقد رأيت أنه كان قبل ظهوره بالدعوة موضع احترام أهل

مكة كافة، وأهله يحبونه ويكرمونه وهو في عيش هنيء، لما اكتسبه من أسباب اليسار بزواجه بخديجة واتجاره بأموالها، فأصبح بعد ظهوره بالدعوة وقد ناصبه أهل مكة العداء وساموه أنواع العذاب وأهانوه، حتى نقموا على بني هاشم، لأنهم أهله فتعاقدوا أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم وكتبوا بذلك صحيفة أودعوها في جوف الكعبة، فاضطر بنو هاشم أن ينفروا إلى الجبال فأقاموا في الشعب ثلاث سنين لا ينزلون مكة إلا خفية — إلا من جاهرة بعداوته للمسلمين كأبي لهب ونحوه.

ولا يعترض على ما تقدم بأنه لم يثبت إلا لاحتمائه بعمه أبي طالب، لأننا رأيناه بعد وفاة عمه أكثر ثباتاً منه في حياته، مع أن الناس أصبحوا أكثر اضطهاداً له مما كانوا قبل وفاته، وخصوصاً بعد وفاة خديجة وقد ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين، فتتابعت بموتها المصائب عليه، واستبدت به قريش ولا سيما عمه أبو لهب والحكم بن العاص وعقبة بن أبي معيط، لأنهم كانوا جيرانه بمنزله، فكانوا يلقون الأقدار في طعامه، ويرمون بها وقت صلاته.

حتى إذا لم يعد يستطيع صبراً على هذا الضيم لجأ إلى الطائف، لعله يلقي فيها من ينصره ويؤمن بدعوته، فلم يلق إلا الإعراض والأذى، فعاد وقد يئس منهم لكنه لم يرجع عن حرف من دعوته، ولم يكتف أهل الطائف بإعراضهم عنه بل أغروا بعض سفهائهم وعبيدهم أن يسبوه ويصيحوا به ففعلوا حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى الحائط وردوا السفهاء عنه فرجعوا، فأحس عندئذ بما هو فيه من ضيق فشكا أمره إلى الله، وعاد إلى مكة ولم يغير ذلك شيئاً من عزمته، فلقى قومه هناك وهم أشد وطأة عليه مما كانوا من قبل.

فاعتبر حاله بعد ذلك الرجوع وقد نبذه الناس قريبتهم وبعيدهم مع علمه أنه إذا رجع عن دعوته لقي منهم ترحاباً وإكراماً كما صرحوا له جهاراً، ولكنه لم يكثرث لشيء من ذلك ولا أهمه أمر الدنيا.

فلولا اعتقاده المتين بصدق الدعوة التي قام بها وأنه منتدب لهذه الرسالة من الله سبحانه وتعالى لما صبر على ذلك كله.

(٤-١) أهل المدينة والدعوة

ولما يئس من أهله ومواطنيه جعل يعرض نفسه على القبائل في أيام الحج لعله يلقى من يصغي إليه وأهله يعترضونه ويقفون في سبيله، وخصوصًا عمه أبو لهب فإنه كان إذا رآه في جماعة يخاطبهم في شأن الإسلام اعترضه وقال للناس «إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه»، ولكن ذلك لم يقعه من دعوة الناس وما زال يعرض نفسه عليهم في المواسم، حتى بايعه نفر من أهل يثرب كانوا وسيلة لنشر الإسلام في تلك المدينة في برهة قصيرة.

ولعل السبب في سرعة انتشار الإسلام هناك كثرة من في المدينة من اليهود وهم أهل كتاب يعتقدون الوحي ويدركون معنى النبوة، وليس فيهم من يخاف على تجارته إذا بطلت عبادة الأصنام، بل هم يفضلون إبطالها لتسقط مكة وتنهد مدينتهم وخصوصًا إذا هاجر إليها صاحب الدعوة نفسه وصارت مركزًا للدين الجديد يحج إليها الناس بدلًا من حجهم إلى مكة واليهود كما لا يخفى أهل النظر في التجارة وأصحاب فراسة في أبواب الكسب، ناهيك بما كان بين تينك المدينتين من المنافسة والمسابقة والتحاسد، لتباعدهما في الأنساب، لأن أهل مكة من العدنانية وأهل المدينة من القحطانية عرب اليمن، فنشطه أهل يثرب ودعوه إليهم على أن ينصروه، فهاجر إليهم سنة ٦٢٢ للميلاد، وهاجر معه من بايعه من قبيلته وهم «المهاجرون»، تمييزًا لهم عن الفئة الأخرى من الصحابة وهم «الأنصار» أهل يثرب، سمو بذلك، لأنهم نصروا النبي في مدينتهم، وبهذه الهجرة يؤرخ المسلمون وقائعهم إلى الآن، وقد سميت يثرب — عندما عم الإسلام أهلها — بمدينة النبي، تم اختصر إلى المدينة، ولزمها هذا الاسم إلى الآن.

ولقي المسلمون في المدينة ترحابًا عظيمًا فاشتد أزرهم وتحولوا إلى محاربة أهل مكة، فجعلوا يناوئونهم في أثناء مرورهم بتجارتهم بين الشام ومكة وفي أماكن أخرى، ووقعت بين الجانبين وقائع كثيرة هي الغزوات المشهورة، أعظمها غزوة بدر الكبرى التي انتصر المسلمون فيها وكانت فاتحة انتصاراتهم في الغزوات الأخرى، حتى أخضعوا جزيرة العرب كلها وفتحوا مكة وأسلم القرشيون كافة، فوجه النبي التفاته إلى العالم الخارجي وخاطب الملوك يدعوهم إلى الإسلام كما سيأتي.

الروم والفرس عند ظهور الإسلام

(١) الروم

تأسست رومية (روما) سنة ٧٥٣ قبل الميلاد وقامت معها الدولة الرومانية، وظلت رومية كرسى تلك الدولة عشرة قرون ونصف قرن، وقد فتحت العالم المعمور يومئذ كله، وفي مايو سنة ٣٣٠ أصبح انقسام الدولة الرومانية إلى قسمين شرقي وغربي، حقيقة واقعة بعد أن كان مجرد تقسيم إداري منذ سنة ٢٩٥ ميلادية، ذلك أن قسطنطين اتفق مع زميله ليسينيوس على اقتسام الدولة، وتولى هو القسم الشرقي واتخذ بيزانطيوم عاصمة له، وسماها القسطنطينية، هياً لها كل مقومات العواصم الرومانية، حتى لقد نقل إليها أعداداً من سكان روما وأعضاء مجلس الشيوخ.

وبعد وفاته سنة ٣٣٧م اختلف أولاده الثلاثة، ثم انفرد بالأمر أحدهم وهو قسطنطيوس، ولكنه لم يستطع الاستمرار، وصار الأمر إلى واحد منهم توفي سنة ٣٦٠م، فخلفه يوليان ثم جوفيان سنة ٢٦٤م، ثم توفي هذا بعد بضعة أشهر، فانتخب الرومان إمبراطوراً اسمه فالنتيان، وبعد قليل نصب فالنتيان أخاه فالنس إمبراطوراً على رومية، وتم انفصال المملكة الرومانية على أثر ذلك إلى مملكتين إحداهما شرقية عاصمتها القسطنطينية والأخرى غربية عاصمتها رومية، وكانت الأولى أسعد حظاً وأطول عمراً فأصبحت القسطنطينية مبعث العلم ومركز السلطنة ومرجع الدين للجزء الشرقي من الدولة الرومانية القديمة.

وكانت حدود الدولة الرومانية الشرقية في القرن الخامس للميلاد غير ثابتة، ولكننا نستطيع القول بصورة عامة أنها كانت تنتهي في الغرب بالبحر الأدرياتي وفي الشرق بضاف دجلة، وتمتد حدودها الشمالية إلى جنوبي ما يعرف اليوم بروسيا، بما في ذلك

تاريخ التمدن الإسلامي (الجزء الأول)

شبه جزيرة القرم، وتنتهي في الجنوب إلى بلاد النوبة، وأرقى عصور هذه الدولة بعد قسطنطين الكبير عصر جستنيان (من سنة ٥٢٧-٥٦٥م) تولاها ٣٧ سنة، قضى الخمس الأولى منها في محاربة الفرس الساسانية، وانتهت الحرب بمعاهدة سموها «معاهدة الصلح الدائم» لكنها لم تدم، ومن حسن حظ هذا الإمبراطور أنه رزق بقائدين من أشهر قواد العصور الوسطى هما بليزاريوس ونارسييس فتحا له إيطاليا ورفعوا أعلامه فوق أسوار روما شمالي إفريقية وغيرها، وكانا عوناً له في سائر فتوحه وساعده الأقوى في توسيع نطاق مملكته.

(٢) الفرس

والعداوة بين الفرس والروم (اليونان) قديمة ربما تجاوزت القرن الخامس قبل الميلاد، وسببها التنازع على السيادة في العالم، لأنهما كانتا أعظم دول الأرض، في تلك العصور، فأرادت كل منهما الاستتار بالسلطان دون الأخرى، واتصلت تلك العداوة إلى زمن الإسكندر الكبير ثم اتصلت في عصور الرومان إلى أيام الإسلام.

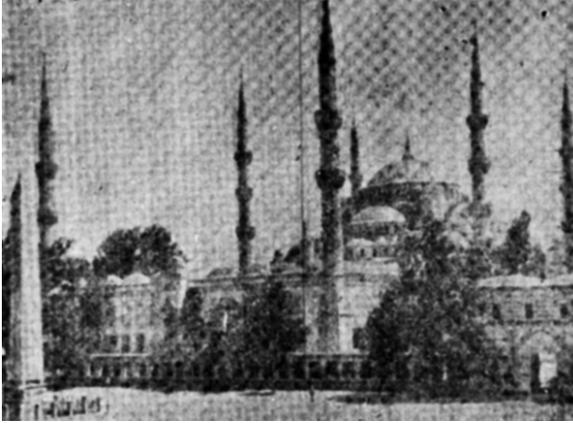


القائد بليزاريوس يقود جنوده في إحدى المعارك ضد الفرس.

وأفضى عرش الفرس في أيام جستنيان المذكور إلى كسرى أنوشروان المشهور بالعدل، فلم تعجبه مصالحة الروم فحمل عليهم بخيله ورجله، ففتح سوريا وأحرق أنطاكية ونهب

آسيا الصغرى، فبعث جستنيان إليه بليزاريوس فحاربه وردّه على أعقابهِ، ثم عاد وعادوا وتوالت الحروب بين الدولتين نحو عشرين سنة (من سنة ٥٤١ إلى ٥٦١ م) وقد مل الملكان وشاخا فتوافقا على صلح قضي فيه على جستنيان بجزية سنوية مقدارها ٣٠٠٠٠ دينار، وظلت حدود المملكتين كما كانت قبل الحرب.

ولالإمبراطور جستنيان ذكر مجيد في تاريخ الدولة البيزنطية، بسبب اتساع حدودها على أيامه واستعادتها للكثير مما كانت قبائل الجرمان قد استولت عليه من ولايات الدولة الرومانية، وبسبب ما قام به من أعمال خلدت ذكره على مدى التاريخ، منها اجتهاده في تكوين مجموعات القوانين الرومانية المعروفة وأشهرها المجموعة المعروفة إلى اليوم بمدونة جستنيان التي كانت أساساً لما وضع بعدها من القوانين في أوروبا إلى اليوم، وقد أدخل صناعة الحرير إلى أوروبا وبنى الكنائس والمعاقل والقصور، وأشهر ما يذكر به كنيسة أيا صوفيا، التي جعلها العثمانيون عند فتح القسطنطينية جامعاً لا يزال معروفاً بهذا الاسم إلى اليوم.



كنيسة أيا صوفيا التي بناها جستنيان، وهي الآن جامع.

ولكن الدولة المطلقة إنما يكون حظها من السعادة أو الشقاء كما يكون ملكها فإن كان عظيمًا عظمت أو كان حقيرًا حقرت، فلما توفي جستنيان خلفه أناس لا يليقون

بالمك فلم تعد تعرف السعادة بعده — خلفه ابن أخيه جستين الثاني ثم طيباريوس ثم الإمبراطور موريس «موريقوس» وقد ضعف أمر الدولة، فأراد هذا الإمبراطور أن يقويها بفتح الشرق فناصر الفرس وحاربهم سبع سنين، وقد توفي كسرى أنوشروان سنة ٥٧٩ هـ، وخلفه ابنه هرمز الرابع، وكان عاتياً فثار عليه رعاياه، فاشتغل بإخماد ثورتهم، والروم يوغلون في بلاده من العراق، والتركمان يسطون عليها من الشمال والشرق حتى كادت تذهب فريسة الفاتحين لو لم يقبض لها الله قائدًا شهيرًا يعرف ببهرام فحارب العدوين وأنقذ البلاد منهما، فمال الفرس إليه فأنزلوا هرمز وسملوا عينيه وملكوا عليهم ابنه كسرى أبرويز، فلم يقبل بهرام، وأذله ففر أبرويز إلى القسطنطينية واستنجد الإمبراطور موريس، فأنجده بجيش تغلب به على بهرام واستعاد الملك، فعرف أبرويز ذلك الفضل لموريس وما زال على ولاء الروم إلى وفاة موريس.

أما هذا الأخير فقد مات مقتولاً سنة ٦٠٢ م وخلفه الإمبراطور فوقاس، وكان فوقاس جلفاً جاهلاً فأبغضته الرعية والتمسوا من ينقذهم منه، وكان من جملة ولاة الأمور يومئذٍ وال على إفريقية اسمه هراكليوس «هرقل» فاستنجد أهل القسطنطينية، فأنفذ إليهم عمارة بحرية تحمل جيشاً يقوده ابنه، وكان يسمى هرقل أيضاً، فقتل فوقاس وترجع في دست الإمبراطورية مكانه سنة ٦١٠ وفي أيامه ظهر الإسلام.

(٣) بين الروم والفرس

ورأى أبرويز باباً لمناوأة الروم فادعى أنه يريد الانتقام من قتلة صديقه موريس فزحف بجنده على سوريا سنة ٦١٤ م وناصره يهودها على البيزنطيين ففتحها وفتح مصر واستولى على أنطاكية ودمشق وبيت المقدس ومدن أخرى من سوريا وفلسطين، ثم أباح لجنده نهب أورشليم «بيت المقدس» فنهبها وأحرقوا القبر المقدس وكنيسة القيامة وسلبوا خزائنها وحملوا بطيريكها والصليب الحقيقي إلى بلادهم، وواصلوا القتل والنهب في سوريا سنة ٦١٦ م فكان عدد الذين قتلوا من المسيحيين ٩٠٠٠٠ نفس، وأرسلوا جنوداً آخر إلى آسيا الصغرى ففتحوها وكان النصر حليفهم حيثما حلوا حتى كادوا يطأون شواطئ البوسفور.

كل ذلك والإمبراطور هرقل معتزل في قصره وقد انغمس في اللهو والقصف والترف لا يبالي بما يهدد مملكته، وكأنه لما تحقق وقوع الخطر نفض غبار الخمول عن عاتقه وخرج للدفاع، ولم يكن عنده مال ينفقه في التجنيد فاقترض أموال الكنائس على أن يعيدها بعد

الحرب مع رباها، وحشد جنده وركب البحر إلى كليكية في آسيا الصغرى واحتل إيسوس فلقية الفرس هناك فحاربهم وغلبهم سنة ٦٢٢م، وفي هذه السنة هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة.



هرقل ملك الروم وحاشيته.

قضى هرقل في محاربة الفرس ثلاث سنين متوالية حتى أوغل في بلادهم واضطر أبرويز أن يسحب جنده للدفاع عن قلب مملكته.

أما هرقل فإنه حاربه مرة أخرى سنة ٦٢٧م فأجهز على قواته وانكسر الفرس انكسارًا عظيمًا، وبلغت جنود الروم نينوى عاصمة الأشوريين القديمة وهي أول مرة وطئ الروم فيها تلك المدينة، وكان أبرويز قد أصبح شيخًا طاعنًا في السن فأوصى بالملك لابنه مردز، وكان له ابن آخر اسمه شيرويه حسد أخاه وعمد إلى الكيد له ولأبيه، فاستعان ببعض الناس حتى قبض على من بقي من أولاد أبرويز وهم ثمانية عشر ولدًا فقتلهم جميعًا بين يدي أبيه وزج أباه في السجن حتى مات.

وبموت كسرى أبرويز انقضى مجد الدولة الساسانية ولم يعش ابنه شيرويه بعده إلا ثمانية أشهر فأصبحت حكومة الفرس فوضى، وادعى الملك تسعة ملوك في أربع سنوات، فساد الفساد وتمكن الاختلال فيها فجاءها المسلمون وهي في تلك الحال.

ناهيك بما كان يهدد الروم في أوروبا من هجمات برابرة القوط، وكان هؤلاء في أوائل الإسلام قد استولوا على غربي هنجاريا «المجر»، وزد على ذلك أن الهون كانوا في أثناء ذلك يهددون مملكة الروم من جهة الشرق.

(٤) الانقسامات الدينية

ولم يكن الاختلال في دولتي الروم والفرس مقصوراً على الوجهة السياسية والإدارية، ولكنه كان يتناول الأحوال الاجتماعية والدينية بما تقام فيها من الانقسامات المذهبية مما هو مشهور، فقد كان الروم حوالي القرن السادس للميلاد في منتهى التضعضع، لتعدد الفرق وتشعب المذاهب وخصوصاً فيما يتعلق بالطبيعة والطبيعتين والمشيئة والمشيئتين، وأكثر اختلافهم على الألفاظ، والجوهر واحد.

فكان الإمبراطور وأهل دولته يقولون إن للمسيح طبيعتين ومشئتين، وأما رعيته في مصر والشام فكان أكثرهم يقولون بطبيعة واحدة ومشئته واحدة وهم اليعاقبة، وفي زمن هرقل سعى البطريرك إثناسيوس بطريك اليعاقبة في منبج في التوفيق بين الطائفتين، فخطب الإمبراطور في ذلك وذهب مذهباً متوسطاً بين القولين، وهو أن للمسيح طبيعتين ومشئته واحدة، فوافقه الإمبراطور واستمهله ريثما يخبر بطريق القسطنطينية بيروس وهو سوري الأصل، وكان إثناسيوس قد اتفق معه على ذلك قبل مخاطبة الإمبراطور، فنشر الإمبراطور بهذا المعتقد منشوراً قبله أكثر الأساقفة الشرقيين إلا صفرونيوس بطريق بيت المقدس وبعض الأساقفة، وفي مقدمتهم أسقف عمان وسائر أهل الكنيسة الملكية، فشق ذلك على الإمبراطور فعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا منشوره وفيهم جانب عظيم من الروم، فأصبح الانقسام مزدوجاً الإمبراطور وبطارقة القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية حزب يقول بطبيعتين ومشئتين، واليعاقبة ومنهم الأقباط وأهل حوران وسائر أهل داخلية سوريا ومصر حزب آخر، والنساطرة وهم أهل العراق والجزيرة حزب ثالث، فضلاً عن طوائف أخرى غير هذه منهم الخياليون الذين يقولون إن المسيح لم يصلب حقيقة، وإنما صلب رجل آخر مكانه، والإكيفاليون القائلون بعدم الخضوع للرؤساء وهم يشبهون الخوارج، ثم إن اليعاقبة أيضاً كانوا أقساماً مما يطول شرحه.

وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد في السياسة لاختلاط السياسة عندهم بالدين، حتى آل ذلك أحياناً إلى خروج أمم بأسرها من حوزة الروم إلى الفرس، كما حصل للأرمن فإنهم لما حرم مجمع القسطنطينية بدعة الطبيعة الواحدة جعل الإمبراطور يشدد النكير

على متبعتها، والأرمن منهم، فأفضت بهم الحال إلى تسليم بلادهم إلى الفرس، وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص، فقد كانوا عوناً له في فتحها للسبب عينه.

(٥) التناقض بين الروم واليهود

ولا بد من الإشارة هنا إلى ما كان بين اليهود والروم من تباض قوي بسبب ما جرى عليه أباطرة الدولة الرومانية من اضطهاد اليهود في تلك الأيام، وقد بلغ هذا التباض حده في أيام هرقل فثار اليهود في أنطاكية وقتلوا بطريقها ومثلوا بجثته تمثيلاً قبيحاً، فأرسل إليهم هرقل فقتل منهم جمعاً غفيراً، وثاروا في صور عاصمة فينيقية وقتلوا واليها، وتآمر يهود صور ويهود فينيقية وفلسطين على أن يدخلوا مدينة صور ليلاً ويقتلوا النصارى، فاطلع مطران صور على المكيدة وأخبر الوالي بها فأمر الوالي الحامية والبوابين والحراس بأن يكونوا تلك الليلة على حذر، ولما جن الليل هجم اليهود من خارج السور فردهم الجند على أعقابهم، فرجع اليهود إلى الأديرة والكنائس القائمة بجوار المدينة فهدموها وسلبوا أنبيتها، وفعلوا مثل ذلك فيما جاورها من القرى، فعاقبتهم الحكومة بقتل كل يهود صور. وحدث مثل ذلك في قيسارية فلسطين فأرسل الملك أخاه ثاودورس فقتل من كان فيها من اليهود، فاشتد غيظهم على المملكة في كل أنحاء، وزاد الروم خوفاً من اليهود وحذراً منهم أن بعض أهل التنجيم أنبأوا الملك أن رجلاً من أهل الختان سيأخذ المملكة منه، ويقول العرب إن المراد بأهل الختان المسلمون، ومما فعله اليهود من الفظائع نكاية في الروم، أنهم اشترتوا من الفرس ثمانين ألفاً من أسرى النصارى وذبحوهم.

ولم يكن التباض مقصوراً على ما بين اليهود والروم، لكنه كان بينهم وبين النصارى على الإجمال، وكانت حكومات النصارى إذا سنت قانوناً خصصت بنوداً منه لليهود لمعاملتهم بالاحترار، كما فعل القوط حكام إسبانيا قبيل زمن الفتوح الإسلامية فقد سماوا اليهود أعداء الحكومة القوطية، وكانت المجالس المليية في تلك المملكة قد قررت إلغاء الديانة الإسرائيلية فأمرت الحكومة بمنع اليهود من الاحتفال بأعيادهم، وأجبرتهم على النصرانية وضيقت عليهم تضييقاً شديداً حتى اضطروا للتظاهر بالنصرانية وقلوبهم ما زالت يهودية تكاد تنفجر حقداً وكظماً على ما نالهم من صنوف العذاب، ولم يكن القوط يجهلون تكتهم ولذلك لم يكونوا يعاملون المنتصرين منهم معاملة المسيحيين الأصليين، بل حرموهم من كل الحقوق المدنية وحظروا عليهم اقتناء العبيد وتمادوا في إذلالهم حتى منعوهم من القراءة، فهل نستغرب بعد ذلك إذا كان اليهود عوناً للعرب المسلمين على حكامهم المسيحيين...؟

(٦) حالة الفرس الداخلية

أما الفرس فقد كانت حالتهم الاجتماعية في غاية الانحطاط قبل الإسلام بمدة طويلة لانشقاق عصاهم بتشعب المذاهب عن ماني ومزدك، ومن غريب دعوى هذا الأخير أن إلهه بعثه ليأمر بشيوع النساء والأموال بين الناس على السواء، لأنهم أخوة أولاد أب واحد، وتبع هذا المذهب قباز أحد ملوكهم، فجاء بعده من نقضه وأقام غيره وتشعبت الآراء هناك وفسدت الأخلاق، وفيما كان الروم والفرس على ما ذكرناه من الانحلال كان العرب في إبان نهضتهم، وقد اجتمعت كلمتهم واشتد أزهرهم بمن كان يهاجر إليهم من رجال الروم والفرس أنفسهم، فرارًا من تغالب الأحزاب أو ضعف الحكام.